

المبحث الثالث:

خصائص وسمات دعوة الأنبياء وجوانب الاقتداء بهم وتفاضلهم فيما بينهم

أولاً: خصائص وسمات دعوة الأنبياء:

إن الدعوات السماوية واحدة من خصائصها، لأنها جميعاً من مصدر واحد، ولها غاية واحدة وأبرز هذه الخصائص والميزات:

1 - الربانية:

فإن أول وأهم ما يمتاز به دعوة الأنبياء أنها بوحى وتكليف من الله ﷻ ، فليست هي نابعة من نفوسهم وليست نتيجة العوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم، من ظلم وبغي وجور، كما أنها ليست من تفكيرهم العميق وتألمهم على الحالة المؤسفة التي يعيشها الناس، أو من شعورهم الرقيق الحساس، وقلوبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك أبداً، إنما هي بوحى من الله وتكليف منه جل وعلا، فكل، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا كَلَفْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال، والأوضاع وشاء المجتمع، وقد قال الله عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 2 - 3].

ولا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلاً، أو تحويراً، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُنْذِرَكُمْ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ۚ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15].

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع، والظروف والأحوال ويراعون المصلحة والسياسة، ويخضعون لها في كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذين يأخذون به «در مع الدهر كيف دار»⁽¹⁾.

2 - الإخلاص التام والتجرد في الدعوة عن الأغراض الشخصية:

كان أنبياء الله ورسله أوفياء للحق قائمين على نشره، وكانوا مخلصين للدعوة متجردين عن الأغراض الشخصية لا يدعون أحداً لقصد الكسب المادي، أو الربح الدنيوي إنما يعلنون أنهم لا يطلبون أجرهم إلا من الله سبحانه، كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّي خَشِيتُ الْمَظَاهِيرَ بِمَا كُنْتُ أَتِيكُمْ فِيهَا مِنْكُمْ﴾ [هود: 11].

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوي، ص: 34.

﴿يَقُولُونَ لَا اسْتَلَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51].

وكذلك قال تعالى على لسان خاتم الأنبياء وهو يقرر هذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَا اسْتَلَكُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [ص: 86].
وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا اسْتَلَكُمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57].

فهم في دعوتهم يخلصون العمل، وفي نصحتهم وإرشادهم لا يرجون الثناء أو المديح إنما يقصدون ثواب الآخرة ووجه الله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]⁽¹⁾.

3 - الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا:

لم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدنيا، والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط، ودعوة لأمنهم فقط، بل كان ذلك مبدءاً ومنهاجاً لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها، السائرين عليها في حياتهم وخواصهم وعشيرتهم، وقد قال شعيب عليه السلام معبراً عن جماعته كلها: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَلَكَ عَنْهُ﴾ [هود: 88].

فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة قد زهدوا في المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة، وضحوا بها في سبيل دعوتهم وفوتوا الفرص وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر في الحياة

(1) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236، النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 37.

والغد المضمون، وكانوا من (اللامعين) في المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتههم وصلاتهم بالبلاط أو الأسر الحاكمة، وعن ذلك عبر قوم صالح: ﴿يَصْلِحْ فَمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: 62]، وبذلك أخذوا أهل بيتههم وأسرتههم، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿١٨﴾ وَلَئِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: 28 - 29].

وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضي الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيقة مع الرسول ﷺ على الرخاء وخفض العيش مع غيره⁽¹⁾.

لقد آثر الرسل الباقية على الفانية لأنهم أيقنوا أن ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الفصص: 60]، لذلك كانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة، وقد خاطب الله رسولنا الكريم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]⁽²⁾.

4 - التركيز على عقيدة التوحيد والتشديد في أمر الإيمان بالغيب:

إن القرآن الكريم تحدث عن الأنبياء بأنهم بدأوا بالدعوة إلى توحيد الله ﷻ.

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 46.

(2) النبوة والأنبياء للصابوني، ص: 40، عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 236.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٦﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 25-26].

- وقال تعالى: ﴿وَلِإِنِ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ آبَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: 50].

- وقال تعالى: ﴿وَلِإِنِ ثَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوْرُ آبَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: 61].

- وقال تعالى: ﴿وَلِإِنِ مَّدْيَنُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ آبَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84].

فالأنبياء جميعاً ركزوا جهودهم على إثبات وحدانية الله تعالى ووجود الصانع المدبر الحكيم وتحقيق العبودية لله تعالى ومحاربة الشرك بأنواعه وأشكاله.

كما أنهم ركزوا على الإيمان بالغيب وجعلوه شرطاً أساسياً للهداية والانتفاع بالدين وشعار للمهتدين، وعلامة للمعتقين.

قال تعالى: ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: 1 - 5].

وقد زخرت الكتب السماوية وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله بالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها

إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشیئة الله القاهرة، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها، أما الإيمان الذي لم يقم إلا بالحس والتجربة والمألوف من الحوادث، ومطابقة العقل الظاهر، والعلم المدون في الكتب، فإنه إما يرفض أن يقبله ويصدق به، أو يتعثر ويتلجلج في قبوله والتصديق به أو يأوله تأويلاً يتفق مع ما ألفه ولذلك قال: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي سَكِّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66].

وقد ذكر القرآن الكريم الفرق بين الفريقين، فريق أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله وصور هذا الفرق تصويراً دقيقاً فقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يطيقه ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب، ، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بني إسرائيل - وحياتها بعد موتها، ومسح فرق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي علمه سليمان وفهمه

لحديث النمل، ومطاوعة الرياح له، وسيرها به غدوها شهر ورواحها شهر، وانتقال ملكة سبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وإسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى⁽¹⁾ ومنه إلى السماء إلى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء⁽²⁾.

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل، والحواس الخمس، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات، إنما هو إيمان مقيد مغلول وإيمان محدود مشروط لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة في الانقياد والطاعة وتفان في الجهاد والتضحية، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمى إيماناً إنما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق وطاعة للحواس والتجارب، ولا فضل فيه ولا يختص بالدين، فكل عاقل في حياته يؤمن بتجاربه، ونتائج استقرائه وما تؤدي إليه حواسه ويرشد إليه عقله، وأما المؤمن بالغيب، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرة، المصدق للرسول في كل ما

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 49 كل ذلك جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة ومواضع عديدة.

(2) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للدودي، ص: 49.

جاؤوا به ونطقوا به، وأخبروا عن الله فهو في راحة وهدوء وانسجام ووثام مع روح هذه الديانات وأخبارها، جاهد وفكر مرة ثم استراح، جاهد وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول وعصمته في ما يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾ [النجم: 4 - 3].

ثم آمن وأطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وضح به النقل في سهولة ويسر، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ﷺ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله وعلمه القاصر، ويسلط عليه التأويل البعيد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: 7-8].

وذكر نفسية الرجل الذي تعود أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق تعقله، الظاهر السطحي، وشهواته ومصالحه فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُخْلِفُونَ﴾ [الحج: 11] (1).

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص: 50 للندوي.

5 - إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له جل وعلا:

من سمات وخصائص دعوة الأنبياء، تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربّه والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية، أن الله خلق عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام⁽¹⁾.

وكل من له صلة بالقرآن - وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة - يعرف اضطراباً وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرchy في حياتهم ودعوتهم، حولها يدنون، ومنها يصدرون وإليها يرجعون، ومنها يبدؤون وإليها ينتهون والقرآن يقول بالإجمال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. وتارة يقول بالتفصيل ما يسمى نبياً نبياً⁽²⁾.

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 36.

(2) المصدر نفسه.

فإخلاص الدين لله وإفراد العبادة له هو الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء ﷺ، في كل عصر وزمان، وفي كل بيئة ومكان فلم يكن هدف الأنبياء صلوات الله عليهم، إلا أن يوجهوا المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم القدير، وأن يصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

6 - البساطة في الدعوة ومجانبة التكلف والتعقيد:

ومن سمات دعوة الأنبياء وخصائصها البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف في حياتهم وسلوكهم بصفة عامة، وفي دعوتهم وكلامهم وحيثتهم بصفة خاصة، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨١) إِنَّهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [ص: 86 - 87] تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين ﷺ جميعاً.

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام بأسلوب فطري غير ذي عوج، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر، وعلم فائق، وألمعية بارعة، ودراسة واسعة للعلوم، وإحاطة بالمصطلحات العلمية، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء، كلٌ على قدر فهمه وطاقته، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة

العالية ولا يشيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغه كل واحد ويحتاج إليه كل واحد⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 135].

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام وهو يقيم الحجة القاصمة على خصمه العنيد، ويقطع عليه الطريق بأيسر الطرق وأظهر البراهين الدامغة قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ قَارِعًا اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

ولهذا نجد أن أنجح طريق للدعوة هو سلوك سبيل الأنبياء عن مخاطبة الفطرة والبعد عن التصنع والمناهج الكلامية⁽²⁾.

- قال إمام الحرمين الجويني: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أُمِّي⁽³⁾.

- قال الفخر الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 92.

(2) عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة، ص: 337.

(3) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصلاحي، ص: 159.

وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال
لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيته تشفي
عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في
الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، واقرأ في النفي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي⁽¹⁾.

- وقال أبو حامد الغزالي: إن الصحابة رضوان الله عليهم
كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة
محمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في
وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن
ذلك مثار الفتن ومنيع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه
إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان⁽²⁾.

7 - وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

ومن سمات دعوة الأنبياء: وضوح الهدف والغاية في الدعوة
فهم يدعون الناس إلى هدف واضح، وإلى فكرة بيّنة، لا لبس فيها
ولا غموض، استمع إلى قوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء
والمرسلين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

(1) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للضلابي، ص: 159.

(2) إجماع العوام عن علم الكلام للغزالي، ص: 89 - 90.

فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى رسالة ربانية واضحة بينة، لا غموض فيها ولا خفاء، ومن مظاهر هذا الوضوح أنهم قد أرسلوا في أقوامهم وبلغتهم حتى يتمكن التفاهم معهم وإيصال الرسالة إليهم، وأن الدعوة كانت تنزل منجمة حتى يفهم السائل، ويقتنع المجادل، ويسهل التطبيق، ومن مظاهر هذا الوضوح أيضاً أن الرسل كانوا يذكرون أصول دعوتهم ابتداء ويستمررون بعد ذلك في التدليل على ما دعوا إليه⁽¹⁾.

8 - الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء:

من سمات دعوة الأنبياء مراعاة الحكمة والمصلحة مطلقاً ورعاية طبائع الناس واستعدادهم، ورعاية المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس وإقبال القلوب ورعاية التدرج والتيسير، وهذا ما تقتضيه طبيعة الإسلام السمحة وحكمة الله البليغة وفطر الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ﷺ.

- قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لِقِرَآءٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّهِ وَزَلَّلْنَاهُ

نَزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

وَحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32].

- وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ

الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

(1) دعوة التوحيد من الكتاب والسنة.

- وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا بشرا ولا تنفرا»⁽¹⁾.

وقال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»⁽²⁾.

وقد كان يرجى تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها: «لولا حدائتي قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم⁽³⁾»، رضي الله عنها.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا⁽⁴⁾.

وعن جابر بن عبد الله: كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فضلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف رجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «فتان فتان ثلاث مرار»⁽⁵⁾. وعن ابن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «يا أيها

(1) صحيح البخاري (622/2).

(2) البخاري (215/1).

(3) صحيح البخاري (215/1).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

الناس إن منكم منفرين، فمن أمم منكم الناس فليتجاوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»⁽¹⁾.

والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى⁽²⁾، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ مفروض في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةُ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ [ص: 20].

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: 89].

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء، أما ما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد: والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام - على اختلاف عصورهم - أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال لا يعرفون تنازلاً ولا يعرفون هودة ولا يرضون مساومة⁽³⁾.

9 - اختصاصها بالعلم النافع المنجي:

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا في دعوتهم بالعلم النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره،

(1) صحيح البخاري (1/215).

(2) النبوة والأنبياء، ص: 35، للندوي.

(3) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 35.

وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هذا الكون، ومدير هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر منه من قول واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى وهذا هو العلم الذي يستحق أن يُسمى «علم النجاة»⁽¹⁾.

10 - الإيمان بالآخرة والاهتمام بها:

من سمات دعوة الأنبياء وملامح دعوتهم وشعائهم هو التشديد على جانب الآخرة، واللهج بها، والإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويندوق كلامهم وأن الآخرة دائماً نصب أعينهم، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم وحسناً أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه، حيث ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ (٨٦) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ (٨٧) وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٨) وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٩) وَأَغْفِرْ لِأَيُّ لَأَيُّ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٩٠) وَلَا

(1) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم، ص: 23.

تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ [الشعراء: 82 - 91].

والإيمان بالآخرة وتمثل ما فيه من سعادة دائمة وشقاء دائم، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء وللكفار العصاة من عقاب، وهو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم وبذل نصحتهم، وهو الذي يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرّ لهم قرار، وهو حافز أقوى وأعظم سلطان على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم، وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم.

وقد تعدّى الإيمان بالآخرة إلى اتباعهم والمؤمنين بهم وتجلي لهم مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها وأنها المبتغى الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، قال مؤمن من آل فرعون: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْزِلَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: 39-40].

وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى، لما

أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَاقٍ ٧٧﴾ إِنَّكُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ٧٨﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ٧٩﴾ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ٨٠﴾ [طه: 72 - 76] (١).

والأنبياء يبعدون كل البعد عن أن يُطمعوا أمتهم في ملك أو سيادة أو منفعة دنيوية، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم أو مكافأة لقبول دعوتهم، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حب العلو والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردي أو القومي قال تعالى: ﴿الَّذَارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنما يُطمعونهم في رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ويجعلون مناط الأمر الثواب والعزاء في الآخرة، إنما يذكرون أن هذا الإيمان والطاعة، والاستغفار يجلب رحمة الله، ويستدر الرزق، ويُنزل الأمطار، ويدفع ما هم فيه من جذب وضيق، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيعَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ١١﴾ [نوح: 10 - 11].

وقال تعالى: ﴿وَتَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَرْزُقْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُرَّتِكُمْ وَلَا تَتْلُوا تَحْرِيمَ﴾ [هود: 25]، وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تختلف عنها كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة⁽¹⁾.

11 - دعوة حضارية ولها أسلوبها الخاص في الحياة:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً، والإسلام - فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى الحضارات التي تُسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً، امتياز في الأساس وفي الروح، وفي الأشكال والتفاصيل⁽²⁾.

وكان إبراهيم الخليل عليه السلام إمام هذه الحضارة الحنيفة المؤسسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المؤسسة على الحياة والأدب مع الله والإنابة والرحمة على بني الإنسان ورقة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114].

وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان

(1) النبوة والأنبياء للندوي، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 64.

رسول الله ﷺ وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشد بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية⁽¹⁾.

إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أكبر دعاء إبراهيم وأكبر همه ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿فَأَجْنِبُوا آلَ إِبْرَهِيمَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿٣٠﴾ حَقَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: 30 - 31].

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جيف المادة والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب، إنها دعوة لم تزل عقيدتها: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتمييز بين الألوان والأوطان، «فالناس كلهم من آدم وادم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى» ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]⁽²⁾.

(1) النبوة والانبياء، ص: 64

(2) مسند الإمام أحمد (411/5).

وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»⁽¹⁾.

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها.

وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجبابة والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من برائن الجاهلية، والدعوات المضلة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة الباقية إنها عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله، وقامت على أساس الإيمان فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني⁽²⁾.

12 - خصائص الأنبياء:

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله ﷻ اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها، وهذه الخصائص لا تخرجهم عن

(1) البخاري رقم 3518.

(2) النبوة والأنبياء، ص: 65.

بشريتهم وعبوديتهم لله ﷻ ، قال تعالى على لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11].

ومن أهم خصائص الأنبياء:

أ - اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [الكهف: 110].

ب - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: والنبى نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم⁽¹⁾.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»⁽²⁾.

ج - تخييرهم عند الموت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة»⁽³⁾، وسمع النبي ﷺ في

(1) البخاري في المناقب رقم 3570.

(2) البخاري في المناقب رقم 3570.

(3) المصدر نفسه رقم 4586.

شكواها التي قبض فيها يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»⁽¹⁾.

س - يقبر النبي حيث يموت:

صح عنه ﷺ قوله: «لم يقبر نبي إلا حيث يموت»⁽²⁾، ولهذا فإن الصحابة رضوا عنه دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض⁽³⁾.

ه - لا تأكل الأرض أجسادهم:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»⁽⁴⁾.

و - أحياء في قبورهم:

صح عنه ﷺ أنه قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»⁽⁵⁾، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكتيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»⁽⁶⁾.

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه،

(1) وقفات تربوية، عبد العزيز الجليل (3/ 33).

(2) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم 5201.

(3) وقفات تربوية (3/ 34).

(4) صحيح أبي داود، للألباني رقم 925.

(5) السلسلة الصحيحة رقم 621.

(6) مسلم، كتاب الفضائل رقم 2375.

فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكيف ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضررون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106].

ز - لا يورثون بعد موتهم:

قال رسول الله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، وما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة»⁽¹⁾.

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها «إنا معشر الأنبياء» وإنما هي بلفظ «لا نورث ما تركنا صدقة»⁽²⁾.

ح - إعداد الله لهم وتهيتهم لرسالته:

لقد أكرم الله ﷺ أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية، لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب، فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة، ولناخذ مثالا على ذلك عناية الله ﷺ بنبيه موسى عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها، حيث يقول ﷺ: ﴿وَلُصِّعَ عَلَى عَيْقٍ﴾ [طه: 39].

فحياة موسى عليه السلام كلها عظات وآيات بينات على سنته تعالى

(1) رواه النسائي في الكبرى رقم 6309، مسند أحمد 9973 إسناده صحيح.

(2) البخاري رقم 6730، مسلم رقم 1757.

في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

- أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلى التهلكة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ قَالَ لَقَطَهُ ۖ هَٰؤُلَاءِ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهُمَّنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: 7 - 8].

- أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة في بيت من يخشى عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْلُوبُهُ عسىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [القصص: 9].

- أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوى أمه، فكان ذلك فيما يرى الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر لطف من الله ورحمة بموسى ليرجعه إلى أمه وهم لا يشعرون، فاجتمعت له السلامة والنجاة وعطف الأمهات وعز الملوك ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ ۚ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 12 - 13].

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم والعطف على الضعيف، وقوة

الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعدّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم وتلخيص ذلك فيما يلي:

* - حفظ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضي أيامه الأولى من حياته في بيئة استشرى فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الفصص: 14].

* - جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوم في نصره المظلوم، فيتجلى ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومدّ يد المعونة إليه، يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

* - كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوى فيه الوعي الديني واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذلك فرز إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نجبه من وكزته وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ على نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله على نعمته ووفاء له بما غفر من ذنبه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ [القصص: 16 - 17].

* - فاض قلبه إيماناً بالله وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

ولما اشدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذ توجه إلى ربه وسأله من فضله وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره أو يُعرض لمن سقى لهما بطلب الأجر ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

وقد استجاب الله دعاءه وهياً له بيئه صالحة يحيا فيها حياة طيبة، فقد عرض عليه شعيب - لما عرف عنه من القوة والأمانة - أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثمانى حجج، فإن أتم عشرًا كان ذلك مكرمه منه، فالتزم موسى بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج

من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: 28] وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف⁽¹⁾.

(1) الحكمة من إرسال الرسل، ص: 78 - 80، عبد الرزاق عفيفي، وقفات تربوية في ضوء القرآن (40/3).